

الاعتدال

بمخت ادبي لقوي

دع الإفراطَ والتخريطَ فيما تُحاولُ من مقالٍ أو قِصَلٍ
فإنَّ سلامةَ الألسنِ ممَّا يُحاذرُه تكونُ بالاعتدالِ

١ — عميد

الاعتدال التوسُّط بينَ حالين في كمٍّ أو كيفٍ — بينَ الطولِ والقِصرِ أو بينَ العلوِّ
والانخفاضِ أو بينَ الكثرةِ والقلَّةِ أو بينَ الشدَّةِ واللينِ ونحوها من الأضدادِ. فنقولُ
جسمٌ معتدلٌ أي غيرُ طويلٍ ولا قصيرٍ . وماءٌ معتدلٌ أي ليسَ بارداً ولا حاراً . ويومٌ
معتدلٌ أي طيبُ الهواءِ خالٍ من قُحِّ القيظِ وفتحِ الزمهريرِ وقسِّ عليه . وكلُّ ما
استقامَ أو تأسبَ فقد اعتدَلَ أي توسَّطَ بينَ طرفي الإفراطِ والتخريطِ غيرَ مجاوزِ
حدِّه من جانبِ الزيادةِ ولا نقصِ عنه من جانبِ النقصانِ . والاعتدالُ في كلِّ شيءٍ
سرٌّ حفظُ الصحةِ وبقاءُ العيشِ ونعمُ البالِ كما قالَ موتسكي القائدُ الألمانيُّ الشهيرُ

٢ — الاعتدال في الطبيعة

وللاعتدالِ امتةٌ كثيرةٌ في أحوالِ الطبيعةِ ومظاهرها . ففي دورانِ الأرضِ حولِ
الشمسِ نشاهدُ كلَّ سنةٍ اعتدالينِ يتساوي فيهما الليلُ والنهارُ . أحدهما في آخرِ فصلِ
الربيعِ والآخِرُ في نهايةِ فصلِ الخريفِ . والماءُ في اعتدالِ درجةِ حرارتهِ يكونُ مائماً
كما نعرفه . فإذا اشتدَّ ارتفاعها تبخرَ أي صارَ بخاراً وإذا هبطتْ درجةُ حرارتهِ جمدَ
وتحوَّلَ إلى جليدٍ أو ثلجٍ . والمعتدلُ من سطحِ الأرضِ منه القيطانُ الفسيحةُ الأرجاءُ
والسهولُ الواسعةُ الأطرافُ التي حوَّلتها الأنعامُ الحارثُ للهُبَامِ إلى مزارعٍ خصيبةٍ
ومغارسٍ فضيرةٍ وحبانٍ فيضاءٍ مستيناً حتى إحيائها وانعاشها بشآبيبِ الأمطارِ أو بيماءِ
الندرانِ والجداولِ والأنهارِ . ومنهُ المفاويزُ الفاحشةُ والصحارىُّ المجدبةُ التي قصرتْ عن
استمراره يدُ الإنسانِ فظلَّ حيداً إلى الآنِ عاطلاً من حيلِ الحضارةِ والعمرانِ .
وما جاوزَ من سطحِ الأرضِ حدَّ الاعتدالِ نامتراً عنه فهو الهضابُ والجبالُ وما انخفضَ
عنه فهو الوهادُ والأوديةُ

٣ — الاعتدال في أحوالِ الألسانِ

والإنسانُ وهو ابنُ الطبيعةِ يجري من هذا القبيلِ يجري أمُّه محتدياً لهاها وناسجاً

على نواها . فترى هذا سالكاً في ما يعالجه ويزاونه من شؤونه سبيل الاعتدال وذلك مفرطاً أي مجاوزاً الحد من جانب الزيادة وذلك مفرطاً أي مقتصراً عنه من جانب النقصان . فالشجاع المتزم في إقدامه حدّ التصل والرزانة وسط بين أن يفاسر مستمته فينتهي إلى الاتحام والتهور ومن يبالغ في الحذر وإيجاس الخوف فيوجل ويكفي وينحط عن الشجاعة إلى الحيابة . والمقتصد أي المعتدل في ما ينفقه من ماله وسط بين المترف الميذر والبخل المقتصر وقس عليه ما بقي من سائر احوال الإنسان كالآكل والعمل والكلام وهو موضوع البحث .

٤ — أوجه الكلام ومزية المساواة

ويراد بالكلام في هذه المقالة كل ما يُلقيه المحدث والخطيب والواعظ على السامعين وما ينشره الكاتب والشاعر في صحيفة أو مجلة أو كتاب على القراء . ولاجتناب تكرار هذه الانواع في اثناء البحث نطلق الكلام عليها كلها والمتكلم على صاحب كل نوع منها فنقول :

قد يكون المتكلم معتدلاً في كلامه أي مفرغاً للمعاني التي يروم إيصالها إلى ذهن السامع أو القارئ في قوالب ألفاظ على قدرها لا ناقصة عنها ولا زائدة عليها . وقد يختصر في التعبير عن مراده اختصاراً يشدُّ المعنى بوثاق النعوض والحفاء ويسد عليه منافذ الوضوح والجلال . وقد يُسرف في الإفصاح عما في ضميره إسرافاً يحلوا المعنى القليل في ثوب لفظي فضفاض ضافي الذبول . وكثير الجواشي . فالاعتدال في الكلام وسط بين الاختصار والإطالة . وهذه الامور الثلاثة تُعرَّف عند أهل المعاني بالمساواة والإيجاز والإطناب

وكثيراً ما تتنحى بحمال الاعتدال وفائدتيه في الأكل والعمل والإفصاح وغيرها من احوالنا وتنحاض عن مزاياه في الكلام . ومحاسن المساواة وقوائدها أعما تظهر جلياً لعين المتأمل عند ما يقابلها بعيوب الإيجاز والإطناب وبضدها تميز الاشياء .

٥ — المستحسن والمحسن من الإيجاز

فالاختصار أو الإيجاز يظلُّ سالمًا من الاعتراض ما دام نقص اللفظ واقعاً بالمعنى غير محلٍّ به سواء كان النص بتصير العبارة أم كان محذوف شيء منها — حزمه جملة أو جملة أو أكثر — بشرط سهولة الدلالة على وقوع الحذف وتعيين المحذوف . فكل ما يرد منه على هذا الوجه نثرًا أو شعرًا مقبولٌ ومستحسنٌ بل هو دليل علو الكعب

ورسوخ التقدم في امتلاك ناصية الإلشاء البالغ وإحراز قصب السبق في مضار اليان
 اما المكروه استهجن من الكلام التوحيز فهو ما كان قائب لفظه قصير ضيقاً
 فيجىء المعنى مرصوفاً مضبوطاً وعليه من النعوض والإيهام حجاب أكثف من
 حجاب المعينات والأحاجي . ولعدة تاهيه في الحفاء والتفيد اللغوي أو المعنوي
 يضطر السامع أو القارىء أن يستكد ذهنه ويبحثهم أشقّ ضرور الإعانة والأرهاق
 في تلك حتمه وحل عقده مقلباً في استكناؤه معناه وجوه التأويل والتفسير التي
 يتسع امامها مجالها وضارباً في مقاوز الكهن والتخمين طمله يستطع جلاء غيب الشك
 بنور اليقين فيذهب عاؤه باطلاً ولا ينال من مراده طاملاً

هذا هو الإيجاز الخلق الذي يتقل على اذن السامع ويسمج في عين القارىء .
 وقته قول الحيرث بن حنزة الشكري : —

« واليش خير في ظلال ال جمل ممن عاش كدا »

وقول الفرزدق في مدح ابرهم بن هشام الحزومي : —

« وما مثله في الناس الا تمكاً ابو أمه حي ابوه بغاربه »

وقول العباس بن الاحنف : —

« ما طلب بعد الدار عنكم تقربوا وتكب عياني الدموع لتجدوا »

وقول ابي العلاء المرعي بصف النوق : —

« طرين لضوء البارق المتعالي يعداد وهذا ما لمن ومالي »

وقول ابي تمام : —

« كوا من الحب فيك كوني في أفقدهم العاشقين لم تكن »

وقول ابو الطيب المتنبي في مطلع قصيدة : —

« أحاد ام سداس في احاد أيتيلتنا النومة بالنادي »

وقوله من قصيدة أخرى : —

« فنى الف جزء رأيه في زمانه أقل جزى بعضه الرأي أجمع »

وغير ذلك مما بطول استيفاؤه . وهو في التث لا يقل عنه في الشعر

٦ — الاطناب

أما الاطناب فقد يهون الخطب فيه لو انحصر اسباب بعض المتكلمين في الاغراض

التي نصَّ عليها علماء البيان كالأبواب بعد الإيهام وذكر الخاص بعد العام تنبيهاً على فضلها . والاحتراس للرفع التوم . والتكرار للتأكيد . والإيقان لزيادة المبالغة . والاعتراض للدعاء والتبويه والبيان وغيرها . ولكنهم كثيراً ما يأتونه اعتباطاً لتبرئة سوي إدخال السأمة والمثل على قلوب السامعين والقرءاء وامتحن مبلغ صبرهم على سماع اللقط وتلاوة القوس

يتصدى بعض الناس للحديث في المجالس أو للخطابة والوعظ على المنابر فيقصون الدقائق والساعات في الكلام على موضوع يبتدئ عنه غيرهم في بضع ثوانٍ فيذهبون بصبر المنصتين لهم ومحملونهم على التبرؤم والتذمر والإعراض عن الاستماع . ويكتب بعضهم نثراً أو ينظم شعراً أطول من شهر الصوم وقد عبت به الأطناب ولعب وأكل عليه الإسهاب وشرب . وليس فيه من الملقى ما تضيق بعض الأجل أو بضعة الآيات عن استيعابها

ولهذا أجمع الأدباء والحكماء من قديم الزمان على ذم كثرة الكلام والتحذير منها وآثروا حتى الإيجاز على الإطناب بل فضلوا الصمت عليه . لأن فيه منجاة من الأخطار التي يتعرض لها الثرثار المهدار وخلاصاً من سماع ما يذهب بصبر أيوب وتلاوة ما يُسقم القوس ويملِّ القلوب . قال سليمان الحكيم في سفر الامثال « كثرة الكلام لا تخلو من معصية » . وقال أبو بكر الصديق « أن البلاء موكل بالمنطق » وقال أكرم بن صفي « مقتل الرجل بين فككيد » وقال الشاعر : —

« الصمت زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مهذارا
ما إن ندمت على سكوتي مرةً ولقد ندمت على الكلام مراراً »

٧ — طول الكلام وضيق الوقت

وما يلاحظه التأمل في اخلاق المولعين بإطالة الكلام على غير طائل أنهم في الغالب أحرص الناس على كل شيء ما عدا الوقت فاتهم يزدرونه ولا يعرفون له أقل قيمة . ويظنون أن غيرهم منهم من حيث انفرط فيه وعدم الحرص عليه . فلا يهمهم أن يقضي السامعون والقرءاء وقهم باطلاً في الإنصات والمطالمة لكلام طويل مفهم براكيب يتلو بعضها بعضاً وهي إن لم يتفق لفظها لم يختلف معناها ومحشور بتماير حلقية بالترادفات والمتواردات

ولكن السامعين والقرءاء في هذه الأيام ليسوا كما توهم بعض الخطباء والكتّاب

فغظلمهم ان لم يكن كلهم مقيدون بأعمال وواجبات يستتفد قضاؤها أكبر جانب من وقتهم ولا يترك لهم من الفراغ لسباع ما ياتي وتلاوة ما يكتب سوى سويات معدودة او دقائق معدودة . فإن استغرق الساع او المطالعة وقتاً اطول مما يستطيحون التفرغ له انصرفوا عنه وقامه النفع المقصود منه .

ومها يتسع لدى الناس بحاج الفراغ للسبع والمطالعة فهم أحرص وأعتل من أن يشغلوه بالانصات والمطالعة إلا لما قلّ ودلّ ولم يطل فيلّ . ومن أهم مظاهر الخدّن الحديث عرفان قيمة الوقت والحرص عليه كما على أغلى الحلى وأفسس الذخائر . واذا كان الناس قد عاقد غفلوا عن هذه الحقيقة لاسباب مختلفة وكانوا لثقة قيمة الوقت عندهم يحصونه بالشهور والسنين فالتاس في هذه الايام يحصونه بالدقائق والثواني . والذين يهدوا إحراراً قصب السبق في مضمار التقدم والتجاح يقترنون على نفوسهم حتى بساطات النوم ودقائق تناول الطعام

۸ — الاطباب المستحسن

او حشوة اللوزينج

فن الاطباب السائغ المقبول ما جاء فيه اللفظ زائداً على المعنى لتكثرة او تفرص من الاغراض التي سقت الاشارة اليها . ولذلك نستحسن كل الاستحسان زيدة « لو تلمون » مثلاً في الآية الكريمة « وإنه تقسم لو تلمون عظيم » . وزيادة « من غير سوء » في الآية الكريمة « وأدخل يدك في جيبيك بخرج يضاء من غير سوء » . وزيادة « وبلتسها » في قول عوف بن عجم : —

« إن التانين وبلتسها . قد أحوجت سمي الى ترجان »

وهذا النوع من الزيادة اطلقوا عليه حشو اللوزينج وجعلوه مثلاً لكل ما يكون حشوة أجود من قشوره . وقالوا عن اللوزينج أنه من الحلواء شبه القطائف تؤدم بالسكر ودهن اللوز . حشوه خير منه

ومن حشو اللوزينج في الكلام وقوع الوصل في مواطن الفصل اي زيادة الواو العاطفة بين لا التافية واجلة الدطائية بعدها . كقولهم « لا وأيدك الله » . فان الفصل اي ترك الواو يوم الدطاء بنو التأييد اي يوم النساء على المخاطب لاله وهو خلاف المقصود . ويقال ان أبابكر الصديق أول من سبق الى زيادة هذه الواو . وذلك انه مرّ به رجل منه ثوب . فسأله أبو بكر « أنيعة ؟ » فاجابه « لا رححك الله » . فقان

له أبو بكر « قد قومت ألسنتكم لو تستقيمون. هلا قلت لا يرحم الله ؟ ». وكان
الصاحب اسمعيل بن عباد يقول أن هذه الواو أجعل من واوات الاصداع في
خدود الحسان

والاصداغ جمع صدغ وهو ما بين العين والاذن. ويطلق على الشعر المتدلي
عليه ومنه قول البهاء زهير : —

« لله أي قلم لو او ذاك الصدغ خطه
ويا له من عجب في خداه كيف نقطه »

وقوله : —

« عسى عطفة للوصل يا واو صدغيه علي فاني اعرف الواو نمطه »

ومن حشو اللوزنج زيادة « ولا تكفه » في قول عدي بن زيد : —

« فلو كنت الاسير، ولا تكفه اذن عليت سمد ما تقون »

وزيادة « من غير كفر بربه » في قول بكر بن النطاح في مدح مالك بن طوق

احد احواد العرب

« ولو لم يجد في العمر تسائل وجاه له الاعطاء من حسنته

لجاد بها من غير كفر بربه وشاركنا في صومه وصلاته »

وعده صلاح الدين الصفدي هذه الزيادة ثابتة في حسن الحشو وجودة الاحتراز

ومنه زيادة « غير معجل » في قول ابي تمام : —

« وجزيت اعلی رتبة مأمولة في جنة الفردوس غير معجل »

او زيادة « غير مفسدها » في قول طرفه : —

« وسقي ديارك غير مفسدها صوب النمام وديمة تهي »

وزيادة « وحاشاك » في قول ابي الطيب المتني : —

« وتحتقر الدنيا احتقار بحر بيري كل ما فيها وحاشاك فانها »

وزيادة « لاخلت اهدأ » في قوله : —

« اذا خلت منك حص لاخلت اهدأ فلا سقاها من الوسمي باكرة »

وزيادة « غير مطرود » في قول ابن الفياض كاتب سيف الدولة : —

« كأساً اذا ابصرت في القوم محتشماً قال السرور له قم غير مطرود »

۹۔ الاطباب المستحسن

اورحتو الاكر

ومها يكثر الاطباب المستحسن او حشو اللوزينج فهو اقل جداً من الحشو الزائد بلا غرض ولا فائدة على الاطلاق «كزيادة» قبله» في قول زهير بن ابي سلمى : —

« وأعلم علم اليوم والامس قبله » ولكسني عن علم ما في غتر عمر

لان امس اي آخر يوم مضى لا يكون الا قبل اليوم . ومنه زيادة « في الاقف»

في قول علقمة الفحل يصف ارجحة (ضرباً من الليون) : —

« يحملن ارجحةً نضج المير بها كان نطابها في الاقف مشموم »

لان الشم لا يكون بصير الاقف . وزيادة « من مقلة » في مطلع البردة لبوصيري : —

« آمن تاكر حيزان بندي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدمر »

فان « السبع » لا يجري من غير النقلة . وزيادة « من الدهر » في قول بعضهم : —

« اعني فني لم تندر الشمس طالمة يوماً من الدهر إلا قُمرًا او نفا »

لان اليوم لا يكون الا من الدهر . وقد يكون الزائد متعيناً كما في الامثلة المتقدمة .

وقد لا يتعين كما في قول عمرو ابن عدي النخعي : —

« وحكمت الحديد براهشيه فالفني قولها كذباً وينا »

فان « الكذب » والين بمعنى واحد لا فائدة من الجمع بينها . ولا يتعين الزائد منها

لصلاحية كل منها للزيادة . ومثل ذلك جمع طرفة بين « صوب الفام » و « ديمة تهي »

في بيت الذي سبق الاستشهاد به . وقد يكون الزائد المتعين مفسداً للمعنى كما في قول

غيلان الثقفى الملقب بذي الرمة : —

« حراجيج لا تفك الا مائة . على الحنف او ترميها باندأ قفراً »

فان زيادة الا قد افسدت المعنى كما لا يخفى

ويقال لهذا النوع من الحشو الملح حشو الاكر لانها لا تحشى الا بكل سقط

خيس لا قدر له ولا قيمة . قال جحظة : « انشدت ابا الصقر شعراً لي فقال : لا

تزال تأتينا بالفرز والدرر اذا جاء غيرك بحشو الاكر » وحشو الاكر في التريشبة

عن طوق الحصر . فعلى المتكلمين كافة ان يجنبوا الايجاز والاطباب الا لمرعاة ما

تقدم من الاسباب . وليعلموا ان الوقت اثنان جداً من ان يقضى بسباع ما يتم وعمل

وتلاوة ما يسقم ويعل . القاهرة . اسعد خليل داغر